تأثير الموقف الدولي على الصراع الروسي العثماني ١٨٠١–١٨٠٧م

أ.م.د يوسف عبد الكريم طه الرديني

كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة تكريت

م.م أحمد حافظ إبراهيم العزاوي

المقدمة :

عملت روسيا القيصرية بكل جهد وتفاني لمدة طويلة، لأجل إعداد شعبها وقواتها العسكرية، وتبنت إستراتيجية تتمكن عن طريقها من تكوين دولة كبيرة في القارة الأوربية والعالم، وأول إعمالها هو التوسع على حساب الدول المجاورة ومنها الدولة العثمانية المترامية الإطراف، فكان ذلك بداية لصراع طويل بين الطرفين أسهمت في تأجيجه عدد من الدول الأوربية، منها: فرنسا وبريطانيا والنمسا، فقد كانت مصالح هذه الدول هي العامل المنافس بينها، من خلال العزف على وتر الأقليات الدينية وطبيعة معاملتهم داخل ولايات الدولة العثمانية، وهكذا أدت تلك الدول الدور الكبير في مسار العلاقات الروسية العثمانية، ولاسيما خلال المدة بين عامي (١٨٠١–١٨٠٧م)، إذ تضاربت رؤى الدول الأوربية في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي بشأن مصير الدولة العثمانية، فقد كان لكل دولة رؤيتها الخاصة بذلك حسب مصالحها .

أولاً: البدايات الأولى للصراع الروسي العثماني ومواقف الدول الأوربية منه :

عُدّت روسيا من البلدان الكبيرة التي شغلت مساحات واسعة من الشرق الأوربي وشمال آسيا في بداية القرن التاسع عشر بفضل التطور السريع لاقتصادها وقواتها العسكرية التي كان لها تأثير كبير في الأحداث الدولية، وأصبحت تؤدي دوراً قيادياً على المسرح الدولي(١) .

تم تحديد اتجاهين في سياسة روسيا الخارجية شمل الأول منها: السيطرة الروسية على الشرق الأدنى لضمان تعزيز وجودها في منطقة ما وراء القوقاز والبحر الأسود والبلقان، والثاني تعزيز التحالف الروسي الأوربي في الحرب ضد فرنسا ً(٢) .

قام القيصر الروسي الكسندر الأول (1801-1825 Alexando 1م) (٣)، فور اعتلائه العرش بإعادة العلاقات الروسية البريطانية التي كانت مقطوعة أثناء المدة الماضية، وكذلك لم يرغب القيصر باستمرار خلافات روسيا مع فرنسا، لذلك عمل على تنظيم العلاقات الروسية مع بريطانيا وفرنسا وإعادتها إلى وضعها الطبيعي، إذ كان في مناطق القوقاز وما ورائها لكي لا تصطدم مع والوجود والنفوذ الروسي، ولاسيما أنَّ لفرنسا وبريطانيا نفوذ في تلك المناطق(٤) .

إنَّ ما قامت به روسيا من أنشطة في الشرق الأدنى كان له هدف إيجابي لبعض دول غرب أوربا، ولاسيما بريطانيا الحليف الطبيعي لروسيا، وذلك للوقوف بوجه إطماع فرنسا في المنطقة،

وكانت روسيا تأمل أنَّ تكمل سيطرتها على جميع الأراضي الواقعة جنوبها وتأمين هذه الحدود، ومن جهة أخرى لاقت سياسة روسيا الجديدة إذعاناً وارتياحاً من أنصارها من شعوب القوقاز الراغبين في التخلص من السيطرة العثمانية والفارسية والرجوع إلى أحضانها(٥) . كانت الخطط الخاصة بتقسيم الدولة العثمانية تدار وتوضع في الأروقة السياسية الروسية، وفكّر القيصر الروسي الكسندر الأول عام١٨٠١م في تنفيذ خطة وضعها وزير الخارجية روستوبجين ((Rostobjeen، مفادها بأنه حان الوقت لتقاسم مناطق النفوذ مع فرنسا والنمسا فتكون مولدافيا وبلغاريا ورومانيا من حصة روسيا، وتكون حصة النمسا (فلاخيا وصربيا والبوسنة)، أما فرنسا فتأخذ مصر، وتبقى جزر الأرخبيل المطلة على البحر المتوسط كجمهورية مستقلة(٦) .

إنَّ تلك الرؤيا للتقسيم أجبرت معظم السياسيين الروس على الوقوف ضد قرار التقسيم، فقد كتب الكونت كوجين ((Count Kogen في عام ١٨٠٢م إلى الإمبراطور الكسندر الأول قائلاً :"بأن من المسيء تقسيم الدولة العثمانية، وأنه يمكن الاحتفاظ بها خير لنا من تقسيمها، الدولة العثمانية هي أكثر جيراننا مساحةً وسكانا، ولذلك ولأجل مصلحة الجميع الاحتفاظ بها وعدم جعلها عدواً لنا"(٧)، مؤكدا إنَّ بقاء الدولة العثمانية ضعيفة أفضل لروسيا من تقسيمها،لان في ذلك حماية لمصالح روسيا في المنطقة في ظل منافسة قوية من قبل فرنسا وبريطانيا، اللتين وقفتا ضد فكرة التقسيم، وبالتالي فأن مساندة روسيا للدولة العثمانية والمحافظة عليها في هذه المرحلة، يحمي مصالحها في المنطقة(٨) . وحين عاد السلام إلى أوربا ولو مؤقتاً بعد عقد صلح أميان9) ((Amiens)، بين فرنسا وبريطانيا في السابع والعشرين من آذار ١٨٠٢ (١٠)، تمكنت فرنسا من أن تعيد علاقتها الدبلوماسية والتجارية مع الدولة العثمانية، فعقدت معها معاهدة سلام في الخامس والعشرين من حزيران من العام نفسه، وأنَّ أهم ما جاء فيها، ولاسيما ما يتعلق بموضوع المضايق، هو منح الدولة العثمانية لفرنسا للمرة الأولى الحق في عبور سفنها مضيقي البوسفور والدردنيل، وحرية الملاحة في البحر الأسود لسفنها التجارية التي تحمل العلم الفرنسي من دون عوائق، وأن تعامل هذه السفن على قدم المساواة مع السفن التجارية التي تبحر في البحر الأسود وهذا ما أثار الروس والبريطانيين(١١) . بدأ عدد من أقوام شبه جزيرة البلقان في الأعوام الأولى من القرن التاسع عشر التحرّك محدثة عدد من الثورات ضد السلطة العثمانية، وطلبت المساعدة من روسيا مذكرة إياها بالانتماء الديني والقبلي، وأنَّ العلاقة الدينية والقبلية هي التي رسمت الطريق لبداية سياسة جديدة في روسيا ضد الدولة العثمانية، وعدّته فرصة للتدخل في الشؤون العثمانية لابد من استثمارها لأجل زيادة فرصة النفوذ في المنطقة(١٢) .

وعلى أثر ذلك ثار الصرب في شرق النمسا عام ١٨٠٢، وطالب مطران الصرب سترانيمبروفيج (Stranimbrovij) النمساويين بمساعدة ومساندة الأقوام التي تنتمي إلى الأصل

نفسه، وأرسل المطران رسالة إلى العاصمة الروسية سان بطرسبرغ في عام ١٨٠٤م، مذكراً الروس بوحدة الدين والعنصر وكيفية تعايشهم مع الصرب طالباً مساعدة ودعم روسيا لأجل التحرر من السيطرة العثمانية(١٣) ، واقترح صيغة التحرر ببقاء الجزء الثائر من الصرب تحت السلطة العثمانية العليا، وتبقى تحت روسيا بقية الأجزاء الداخلية المستقلة عن السلطة العثمانية(١٤)، وأنَّ تلك الأحداث التي شهدتها منطقة البلقان، هي جزء من المشاكل الكثيرة التي عانت منها الدولة العثمانية التي بدأت تغذيها الدول الأوربية وعلى وجه الخصوص روسيا القيصرية .استمرت الدول الأوربية الطامعة بالدولة العثمانية بالتقرب منها والضغط عليها، في محاولة إقناعها بالتحالف معها، حتى تمكنت روسيا في عام ١٨٠٥م، أن تجدد معاهدة التحالف الدفاعي مع الدولة العثمانية التي كانت قد عقدتها في عام ١٧٩٨م، وتقرر تجديدها لمدة تسعة أعوام بتأييد من الحكومة البريطانية، فقد نجحت روسيا بموجبها أن تنتزع من الحكومة العثمانية امتيازات أشد خطراً من أية امتيازات سابقة منحت لها، فقد اعترفت الدولة العثمانية في المعاهدة المجددة التي أُبرمت في الثالث والعشرين من أيلول ١٨٠٥م بأنَّ الدفاع عن المضايق، إنما هو مسؤولية مشتركة تقع من حيث المبدأ على عاتق الدولة العثمانية وروسيا(١٥) .اشتملت المعاهدة على جزأين جزء معلن من أربعة عشر مادة وجزء سري يقع في تسع مواد، والجزء السري تضمنت المادة الأولى منه على سماح السلطان العثماني للسفن الروسية وناقلات جنودها بعبور المضايق في زمن الحرب، ونصت المادة الرابعة منه حق قيصر روسيا وخلفائه من بعده بالمحافظة على سلامة الجزر الأيونية والدفاع عنها ضد كل اعتداء خارجي، وإنّ الموقف السياسي في شبه الجزيرة الايطالية يجعل من الضروري استمرار الاحتلال الروسي للجزر الأيونية، وإنّ هذا الاحتلال يستمر طالما كانت الأسباب التي دعت إليه ما تزال قائمة، وتعهدت الحكومة العثمانية باتخاذ التدابير لتسهيل مرور السفن الحربية الروسية عبر المضايق لأجل خدمة وتموين القوات الروسية التي تحتل الجزر الأيونية(١٦)، ثم جاءت المادة السابعة من الملحق السري التي تعد من أخطر المواد، والتي نصت على أن الدولتين العثمانية والروسية قد قرّرتا إغلاق البحر الأسود، بحيث لا يسمح بمرور السفن الحربية التابعة للدول الأخرى عبر المضايق، وإنَّ كل محاولة من جانب دولة أخرى مهما كانت لانتهاك هذا القرار يُعد عملاً عدائياً موجهاً للدولتين العثمانية والروسية، وعلى إثر ذلك فأن الدولتين تعهدتا باستعمال كل قواتهما البحرية في وجه كل سفينة حربية تحاول دخول البحر الأسود(١٧) .كان تقرير مبدأ الدفاع المشترك عن المضايق في مقدمة الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها السلطان سليم الثالث (١٧٨٩–١٨٠٧م) ودليلاً على قوة التأثير والضغط السياسي الروسي على السلطان العثماني، فلم يحدث من قبل أن منح سلطان عثماني لروسيا هذا الحق الذي شكل خروجاً على السياسة

العليا للدولة العثمانية، ولكن قلل من خطورة تلك المعاهدة غير المتكافئة، التغيرات السريعة التي طرأت على الموقف العسكري والسياسي في أوربا بعد عام ١٨٠٦ التي عجّلت بإنهاء العمل بتلك المعاهدة، والإطاحة بالتحالف الثلاثي بين الدولة العثمانية وبريطانيا وروسيا، وأدت إلى تعرض مضيقي الدردنيل والبسفور للاقتحام من قبل سفن الأسطول البريطاني(١٨) . اتبع الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت سياسة هدفت إلى تقوية نفوذ بلاده في الدولة العثمانية، مما أثار القلق الدائم للساسة البريطانيين، فقد حاول إبعادهم قدر المستطاع عن القارة الأوربية وتوجيه أنظارهم إلى خارجها خشية من قوتهم العسكرية(١٩)، وبالمقابل أن روسيا اقتنعت بضرورة حلّ المشاكل القائمة مع الحكومة العثمانية بالطرق الدبلوماسية، وآزرتها رغبة بريطانيا بإيجاد حل سلمي للقضايا العالقة لكي لا تمنح أي فرصة لفرنسا لتقوية علاقاتها ونفوذها مع الدولة العثمانية، ولذلك قررت روسيا اللجوء إلى وسائل ذات فعالية أكثر تهدف إلى إقناع الباب العالي بحل المشاكل بالطرق السلمية والوقوف بوجه التوسع والنفوذ الفرنسي، ولاسيما أن فرنسا زادت من نشاطها المعادي لروسيا داخل الدولة العثمانية(٢٠) .حاولت روسيا الحصول على إسناد بريطانيا للسياسة التي انتهجتها في منطقة البلقان وللتغييرات التي تريد أن تحدثها هناك، فجوبهت تلك الخطوة بارتياب من جانب الحكومة البريطانية، لأنها رأت في ذلك ما يدل على أن روسيا تريد أن تكافئ نفسها على حساب الدولة العثمانية، وهذا ما لمسه رئيس الوزراء البريطاني وليم بت (William bit) في محادثاته مع المبعوث الروسي بزسيلتسين (Bzsyeltsin)، الذي أرسلته روسيا في عام ١٨٠٦م لإقناع بريطانيا للقيام بعمل مشترك وتوضيح رؤية بلاده بشأن تقسيم أملاك الدولة العثمانية، لأنها أعادت فكرة التقسيم من جديد بعد ازدياد النفوذ الفرنسي في الدولة العثمانية، ولاسيما بعد ملاحظة روسيا عدم رغبة العثمانيين في إعادة العلاقات بين الجانبين إلى سابق عهدها(٢١) . أصبح النفوذ الفرنسي في دوائر الباب العالي واسع وكبير بعد انتصارات نابليون بونابرت العسكرية والسياسية ووصول أصدائها الواسعة إلى استانبول، مع تضائل النفوذ الروسي في العاصمة العثمانية، حتى أصبح السفير الروسي أيتالينسكي (Italinsky) من الأشخاص غير المرغوب بهم في استانبول، ولم يعدَّ له وزن كبير في الساحة الدبلوماسية هناك(٢٢).كان على روسيا مقاومة الدعاية الفرنسية التي كانت تداعب الآمال التحررية لشعوب البلقان، ولاسيما شعارات الثورة الفرنسية البراقة التي بدأت تظهر بوادرها لدى الشباب المثقف، وأنَّ تتخذ من المواقف الجادة لتحقيق آمال تلك الشعوب ومنع التقرب الفرنسي منها، إذ بدأت تساند ثورة الصرب القومية ضد الباب العالي وقدمت لها الدعم العسكري والسياسي، وهذا ما أثار حفيظة الحكومة العثمانية ضد روسيا بشكل كبير وبدأت بالتقرب من فرنسا(٢٣) . بادرت الحكومة الروسية إلى اتخاذ تدابير عدة لمواجهة الوضع الجديد المتمثل في موقف الدولة

العثمانية المضطرب وغير المتزن منها، وتقربها من فرنسا الذي مكّنها من إقامة علاقات مباشرة مع شعوب البلقان، وهو ما أثار القلق الشديد للحكومة الروسية، إذ حاولت الضغط بوساطة سفيرها في العاصمة العثمانية استانبول واستعمال النفوذ البريطاني لدى الباب العالي، واستثمار الوضع الذي أسهمت في خلقه النجاحات الكبيرة التي حققها الثوار الصرب في عام (١٨٠٥–١٨٠٦م)، كل هذه الأمور والعوامل والضغط على الباب العالي هو لكي يتراجع عن تحالفه مع فرنسا، ولضمان الامتيازات التي حصلت عليها روسيا بموجب المعاهدة السابقة (٢٤) . إنَّ التطورات السياسية والعسكرية التي شهدتها الساحة الأوربية، كانت تسير على وفق عملية شد وجذب، بعد معركة (الطرف الأغر) (٢٥)، في الحادي والعشرين تشرين الأول ١٨٠٥م، التي تمكن الأميرال البريطاني نيلسون (Admira Nelson)(26)، من تدمير الأسطول الأسباني الفرنسي المشترك بالقرب من ميناء كاديكس الأسباني، أما في البر فلم يكن الوضع على ما يرام بالنسبة للقوات المتحالفة ضد نابليون، إذ تمكن الأخير في الثاني من تشرين الثاني عام ١٨٠٥م من إلحاق هزيمة قاسية بالجيش الروسي– النمساوي، فقد لاذ كل من ألكسندر الأول وإمبراطور النمسا بالفرار من أرض المعركة، وبعد الهزيمة والرعب الذي أصاب الإمبراطورين الروسي والنمساوي، فقد اضطر الأول إلى عقد اتفاقية بريسبورغ للسلام مع فرنسا في الرابع عشر من كانون الأول من العام نفسه في النمسا(٢٧)، واستولت فرنسا بموجب هذه الاتفاقية على مدن (أستريا وكوتور ودلماشيا) في البلقان،ممّا تسبب في اختلال توازن القوى في المنطقة لصالح فرنسا، فأثرت هذه النجاحات على الحكومة العثمانية التي أخذت تسعى للتقرب من فرنسا، ولاسيما بعد استيلائها على مناطق واسعة في البلقان وازدياد خطرها على الممتلكات العثمانية هناك بعد وصول القوات الفرنسية على مشارف الحدود العثمانية، وأن مسرح المواجهة القادمة لفرنسا، هي الأراضي العثمانية في البلقان، فكان لابد من البحث عن وسائل وصيغ كفيلة لإبعاد النفوذ الفرنسي عن تلك الأراضي(٢٨) . اقترح تاليران(٢٩)،وزير خارجية فرنسا على نابليون بعد الانتصار على النمسا، منح أراضي رومانيا والبغدان وبسارابيا وشمال بلغاريا للنمسا، منعاً لامتداد نفوذ روسيا تجاه أوربا، حتى إن نابليون نفسه أكد على ان انتصاره على النمسا هدف منه كسبها إلى جنبها في مواجهاته القادمة ضد أعدائه، واتخاذ النمسا وسيلة ضغط على الحكومة العثمانية، من أجل جذبها إلى جانب فرنسا وضمان مصالحها في البلقان (٣٠) . ونتيجة لتطور الأحداث في أوربا وتغير وضع الجيش الروسي وسلاحه البحري في منطقة البحر المتوسط، إذ كانت روسيا تعتمد على ائتلافها السابق قبل هذه المدة، أما الآن فلم يبق من تحالفها سوى حكام جزيرة مالطا، فضلاً عن الدولة العثمانية، وفي يوم الرابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٨٠٥م، أمر القيصر قواته البرية والبحرية المتواجدة في البحر المتوسط بالانسحاب إلى روسيا

وإخلاء المنطقة، ما عدا بعض القوات القليلة التي أبقاها في جزيرة كرفو(٣١)،وكان للتطورات التي حدثت في القارة الأوربية، والانتصارات السريعة للقوات الفرنسية على الجيوش المتحالفة ضدها والتطورات في الجزر المنتشرة في كل من البحر المتوسط والبلقان قد أثارت السلطان العثماني سليم الثالث مثلما أثارت إمبراطور النمسا فرديناند الأول وكذلك ألكسندر الأول، الأمر الذي دفع السلطان سليم الثالث بإرسال كتاب إلى صدره الأعظم قائلاً فيه : "يا وزيري مثلما أخبرتك من قبل شفهياً، أجعل رئيس الكتّاب يرسل لفونتين ويخبره إننا نعترف بكون نابليون إمبراطوراً، فكيف تتوقع منا أن نتخذ موقفاً ضد إمبراطور انتصر على عدد من الدول وهزم إمبراطورين عظيمين، فإذا كان الشعب الفرنسي وإمبراطوره صديقنا، فان عدم قبول هذه الحقيقة سيكون أمراً غير منطقياً، هكذا يقول الشعب وفي قول الشعب هذه حقيقة"(٣٢) .

ثانيا : تطورات الموقف الدولي وتأثيره على العلاقات الروسية العثمانية :

أدى تفاقم الأوضاع الداخلية في منطقة القوقاز وما ورائها في بداية القرن التاسع عشر الميلادي،إلى تدخل روسيا لضمان مصالحها،فاتخذت خطوات جادة لتوسيع مناطق نفوذها في القوقاز ،ولاسيما فرض سيطرتها على جورجيا(٣٣)،بعد أعتلاء عرشها كَيوركُي ابن أيزكليا (Khiurki son Oazaklaa) الذي طلب من الحكومة الروسية مساعدته ودعم حكمه ومصالحه ضد الأخطار الداخلية والخارجية التي كانت تهدد بلاده، وقد قبل هذا الطلب من قبل الحكومة الروسية، فعندئذ دخلت مناطق شرق جورجيا ضمن السيطرة الروسية في عهد القيصر الكسندر الأول، الامر الذي أثار غضب الدولة العثمانية، لأنَّها تعد جورجيا أحد أملاكها(٣٤)،وفي ضوء ذلك أصدر القيصر أمراً بانتقال مدينة (كارتي ليا–كافيتينا) الجورجية تحت وصاية روسيا، وفرضت في شرق جورجيا الإدارة الملكية الروسية، وفي عام١٨٠٦م دخلت الأجزاء الأخرى من جورجيا (ميتمربليا و كورب و أيميرتيا) تحت حكم روسيا، التي عملت على بناء علاقات إستراتيجية مع شعوب المنطقة معزَّزةً موقعها في القوقاز وما ورائها، وتمكنت عن طريق احتلالها لهذه الأجزاء من بناء علاقات اقتصادية أسهمت في دعم الاقتصاد الروسي وشق طرق مواصلات جديدة، تمكنت من خلالها ربط ما وراء القوقاز بأجزاء روسيا الأوربية(٣٥) . إن دخول جورجيا تحت سيطرة روسيا،أدى إلى تصادم الأخيرة مع الدولة العثمانية وبلاد فارس من جهة،ومن جهة أخرى كان لهذه الدول مصالح مع الكثير من سكان جورجيا، فضلا عن المصالح المشتركة بينهما،وقد اثار هذا التوتر قلق بريطانيا، ولاسيما بعد النجاحات السياسية التي حققتها روسيا والتي بدأت تهدد ممتلكاتها في الهند وبلاد فارس (٣٦)، ويبدو أن انضمام جورجيا إلى روسيا قد حرم الدولة العثمانية من موارد اقتصادية كانت تحصل عليها من الضرائب والرسوم الكمركية،وكذلك من حركة التجارة القادمة من الشرق عبر جورجيا ومنها وأليها. إن

الأحداث المهمة التي جرت في منطقة القوقاز وما ورائها، و المساندة التي قدمتها روسيا القيصرية للانتفاضة الصربية من جهة، والتقدم الفرنسي في أوربا وازدياد حدة الصراع الفرنسي– البريطاني على أرض الواقع، ومحاولة كل منهما إيجاد حلفاء مساندين لهما من جهة ثانية، كل هذه التطورات أدت إلى حدوث تغير كبير في مجرى الصراع في المنطقة بإسرها(٣٧) . وإن هذه التطورات التي حدثت قد زادت من التقارب بين فرنسا والدولة العثمانية ومحاولة استمالتها إلى جانبها، فبعد انتهاج روسيا وبريطانيا لسياسة معادية لفرنسا، أخذت الأخيرة بالضغط على السلطان العثماني سليم الثالث لجذبه إلى جانبها في صراعها في المنطقة(٣٨). وفي تلك المدة أرسل نابليون بونابرت سفيراً جديداً إلى العاصمة العثمانية هو الجنرال سبستياني (Sebstilai)، الذي وصل إلى استانبول في العاشر من آب عام ١٨٠٦م، و حظي باستقبال رسمي حافل غير مسبوق، وأوكلت له مهمة العمل على عقد اتفاقيات مع العثمانيين ضد روسيا، واعتراف الباب العالي بنابليون إمبراطورا لفرنسا، وقد عمل سبستياني بكل جهده لإقناع العثمانيين، بل انه عرض عليهم إمكانية العودة إلى حدودهم السابقة المتفق عليها بموجب معاهدة كجك – قينا رجي، وقد عرض السفير الفرنسي على السلطان العثماني إمكانية إعادة مدينتي قريم واوجاكوف تحت سيطرته(٣٩) . وأثر هذه الضغوط الفرنسية، بدأت روسيا بمحاولة إعادة علاقاتها الطبيعية مع الدولة العثمانية مستخدمة مختلف الوسائل، فقد أرادت الوقوف ضد محاولة السفير الفرنسي في استانبول في الحصول على اعتراف السلطان العثماني بنابليون بونابرت إمبراطوراً، مهددة الدولة العثمانية بأن السفير الروسي ايتالنسكي سوف يغادر العاصمة العثمانية، وأنَّ روسيا سوف تعمل على ضمان مصالحها بالقوة في المنطقة في حالة اعتراف الباب العالي بنابليون إمبراطوراً بشكل رسمي(٤٠) . حرصت الدولة العثمانية على التعرف على مدى الخطورة التي يشكلها كل طرف على مصالحها ومناطق نفوذها، ووجدت أنَّ فرنسا هي الطرف الأقوى في الصراع والأقل أطماعاً في ممتلكاتها مقارنةً مع روسيا وبريطانيا، وكذلك وجدت الدولة العثمانية في فرنسا خير حليف لها، ولاسيما بعد انتصاراتها على النمسا وبروسيا، وأن الفرصة سانحة بأن تتخلص بواسطة فرنسا من الضغط المستمر الذي تمارسه روسيا عليها سواء عن طريق التدخل في شؤونها الداخلية،أومساندة بعض القوى المعادية لها، ومع ذلك رغبت الدولة العثمانية جمع صداقة فرنسا وبريطانيا معا ضد روسيا (٤١). تقربت الحكومة العثمانية من فرنسا نتيجة للضغط الروسي عليها في عام ١٨٠٦ وبهدف الحصول على المساندة الفرنسية ضد روسيا، فكان لزاما عليها أن تواجه الموقف البريطاني المؤيد لروسيا والمعارض لأي توسع فرنسي في المنطقة(٤٢). كانت بريطانيا حريصة على ضمان أمن مستعمراتها الواسعة، فكانت تتدخل ضمن حدود مصالحها وامتيازاتها(٤٣)، فقد ذكر وزير الخارجية الفرنسي عن المجابهة مع القوة البحرية البريطانية قائلاً

:"إن القوة الانكليزية البحرية لا يضاهيها أحد في العالم، وأن القول بشيء آخر يعني خيانة للإمبراطور الفرنسي وإخفاء الحقيقة"(٤٤)، وهذا يدل على حجم هذه القوة ومقدرتها والخشية الفرنسية من التصادم معها، وان حدث ذلك فإنَّ النتيجة هي لصالح بريطانيا، وبالتالي حرصت فرنسا على كسب حلفاء لها ضد بريطانيا وروسيا، فلم تجد اقرب إليها من الدولة العثمانية بسبب ظروفها التي تعاني منها من جراء الضغط الروسي على ممتلكاتها وولاياتها المحاذية لحدود روسيا، وكذلك محاولة روسيا استخدام الرعايا العثمانيين الذين يدينون بالنصرانية بإثارة إعمال التمرد ضد الدولة العثمانية كوسيلة للوصول لغاياتها. طلبت الحكومة العثمانية من السفير الروسي (أيتالنسكي) في شهر نيسان ١٨٠٦م بضرورة تقليل أعداد السفن الحربية الروسية المارة عبر المضايق العثمانية، وذهب الباب العالي في موقفه العدائي من روسيا إلى الحد الذي ألغى في شهر حزيران من العام نفسه جميع الامتيازات التي كانت ممنوحة للبحارة الروس، مما أثار غضب وردود فعل من قبل السفير الروسي في استانبول الذي طالب الباب العالي على الإبقاء على هذه الحقوق لأنها ضمن بنود الاتفاقية الروسية العثمانية، وتدخل عندئذ شارل أربثنوت (Chorles Arbathnot) السفير البريطاني لتأييد زميله الروسي، الذي قدم مذكرة احتجاج إلى الباب العالي حول حقوق روسيا الإقليمية ولكن النفوذ البريطاني في استانبول قد تضاءل، بل وصل إلى مستوى ضعيف مقارنة بالنفوذ الفرنسي (٤٥) . طلب السفير البريطاني من حكومته إرسال قوات بحرية إلى منطقة المضايق العثمانية لمساندة موقفه في اتصالاته مع دوائر الباب العالي، لكن الحكومة البريطانية لم تأخذ الأمور بتلك الدرجة التي كان عليها سفيرها في استانبول، ونتيجة للتطورات الحاصلة على الساحة العثمانية، فقد كتب السفير البريطاني إلى حكومته في عام ١٨٠٦م قائلاً :"إنَّ لم نتحرك سريعاً بأساطيلنا فان الفرنسيين سيقومون بتعزيز الاستحكامات الضرورية عند المضايق"(٤٦) . كانت بريطانيا في ذلك الوقت حليفة لروسيا، كما انها تعد نابليون عدوها اللدود، وليس ذلك فحسب، بل عدّت كلُ من حالف نابليون عدواً لها أيضا (٤٧) . أدى نابليون دوراً رئيساً بدفع العلاقات العثمانية الروسية إلى مرحلة التوتر، ولاسيما التحريض الذي كان يمارسه سفير فرنسا في الدولة العثمانية الجنرال سبستياني ضد روسيا وحلفائها، عن طريق محاولة إقناع المسؤولين العثمانيين بالخطر والنوايا السيئة لروسيا تجاه الدولة العثمانية (٤٨). في الجهة الأخرى مارس السفير الفرنسي سياسة مؤثرة على الدولة العثمانية بفضل ما كان يقوم به وما قدّمه من عروض للباب العالي، لأجل الدفاع عن الدولة العثمانية ومحاولة تثبيت صداقة العثمانيين لفرنسا، التي كانت تواجه تحدي كبير جداً متمثل بالأحلاف الأوربية الموجهة ضدها والتي كانت تتزعمها بريطانيا التي تعد أقوى قوة بحرية في

العالم(٤٩). أقدمت الدولة العثمانية على إلغاء معاهدتيها مع روسيا وبريطانيا بتشجيع من فرنسا، وكان ذلك الإجراء مقدمة لقطع العلاقة بينها وبين كل من روسيا وبريطانيا(٥٠).

يبدو أنَّ تلك التطورات التي حدثت في القارة الأوربية والتي ساعدت على وجه التحديد في التقارب الفرنسي العثماني، قد أثارت ردود فعل سلبية لدى روسيا وبريطانيا وحلفائهما، فبدأت روسيا محاولات للاستفادة من المشاكل الحاصلة في الولايات العثمانية سواء في منطقة البلقان أو القوقاز، لإضعاف جبهة العثمانيين وتحقيق مكاسب على حسابهم أولا، ومن ثم إجبارهم على العودة إلى التحالف العثماني الروسي البريطاني السابق ثانيا. منعت السلطات العثمانية مرور السفن الحربية الروسية عبر المضايق العثمانية في خريف ١٨٠٦م، وأدّت تلك التطورات الأخيرة إلى توتر العلاقات الروسية – العثمانية وتدهورها بشكل كبير،وبدأت أثرها التهديدات تطلق بين الطرفين وبدء كل منهما بتشجيع أنصاره وإتباعه على التهيؤ للقيام بمهمات تتطلبها المرحلة القادمة من الصراع، وحصلت تلك التطورات من جراء تأثير الانتصارات الجديدة التي حققها نابليون في القارة الأوربية (٥١) . تعرض الجيش البروسي إلى هزيمتين من قبل الفرنسيين في جبهتين مختلفتين في يوم واحد في الأول شهر تشرين الأول ١٨٠٦م، إذ تمكن نابليون في زمن قصير من احتلال كل من برلين وارشونا، ووصل الجيش الفرنسي إلى حدود روسيا، من جهة أخرى كان القيصر الكسندر الأول والجيش الروسي منشغلين بحرب ضروس مع نابليون في بولندا وشرق بروسيا، إلا أنه وجه قسم من قواته للرد على تهديدات السلطان العثماني، وفي الرابع من تشرين الأول عام ١٨٠٦م، أعطى القيصر تعليماته لـ مهيلسون(Mhillson) قائد جيش منطقة البغدان والأفلاق بمساعدة الثوار الصرب ، إذ قام في الرابع والعشرين من كانون الثاني عام ١٨٠٧م بإرسال حوالي (١٨٠٠٠) قطعة ذهبية وكذلك تقديم أسلحة إلى قره جورجي لدعم الثوار في صربيا وإشغال العثمانيين(٥٢) . كانت الحكومة الروسية تتحسب لاحتمال انهيار الدولة العثمانية بسبب التوسع الفرنسي في جنوب شرق أوربا، فسعت أن توفر لنفسها دوراً فاعلاً عند تقسيم الممتلكات العثمانية في أوربا(٥٣)، وعلى الرغم من أن روسيا كانت لديها الرغبة في البقاء في معسكر واحد مع الباب العالي ضد التوسع الفرنسي في المنطقة، فقد ظلت تعزز تحالفها الإستراتيجي مع بريطانيا منذ عام ١٨٠٧م ضد طموحات نابليون ومن ثم استثمار هذا الحلف باتجاه تحقيق أهدافها ضد الدولة العثمانية، ولاسيما بعد تشجيعها حالات التمرد ضد الدولة العثمانية في جميع المناطق المحاذية لها، لأجل إثارة المشاكل وتشتيت الجهد العثماني وأبعاده عن التحالف مع فرنسا، وعودة الدولة العثمانية إلى وضعها السابق وتحالفاتها القديمة التي كانت موجودة قبل مجئ نابليون الى المنطقة(٥٤) .

الخاتمة

توصل البحث إلى نتائج عدة منها :

١- إنَّ مسار العلاقات الروسية –العثمانية بين عامي (١٨٠١-١٨٠٧م)، كانت تتحكم به المصالح العليا للدولتين والظروف الدولية المحيطة بهما، إذ أسهمت اغلب الدول الأوربية في تغذية ذلك الصراع وزيادة المشاكل بين روسيا والدولة العثمانية، بما يتناسب مع سياستها ومصالحها .

٢- إنّ حجم المصالح وضراوة التنافس بين الدول الأوربية،ولاسيما بعد بروز فرنسا كطرف دولي مؤثر في مطلع القرن التاسع عشر، أثر بشكل كبير على تشجيع العلاقات العدائية بين روسيا والدولة العثمانية، ومحاولة كل دولة أوربية في تقديم الدعم والعون تبعا لمصالحها لهذا الطرف على حساب الطرف الأخر .

٣- إنَّ مما ساعد على استمرار الصراع الروسي –العثماني هو سياسة روسيا في تحريض الشعوب النصرانية الخاضعة تحت سيطرة الدولة العثمانية في منطقتي البلقان والقوقاز ،وبالتالي زيادة حدة المشاكل بهدف إضعاف سيطرة العثمانيين على تلك المناطق .

٤- أسهمت حروب إمبراطور فرنسا نابليون بونابرت وانتصاراته في القارة الأوربية على انقسام الدول الأوربية في صراعها ضد الدولة العثمانية، وقسم آخر وقف إلى جانب العثمانيين، تبعا لمصالح كل دولة ومدى استفادتها من توظيف الأحداث الدولية في خدمة أهدافها الاستعمارية .

هوامش البحث ومصادره

(١) Данилов А.А., Косулина Л.Г. История России XIX века / А.А. Данилов, Л.Г. Косулина. – М.: Просвещение, 2012. – 288 с.

(٢) هاشم صالح التكريتي، الصراع بين الدول الكبرى في البلقان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (الأزمة البلقانية ١٨٧٥–١٨٧٨ نموذجاً)، ص٩٦ .

(٣) إمبراطور روسيا (١٨٠١–١٨٢٥ م) ولد في ١٢ كانون الأول ١٧٧٧م في مدينة بطرسبرغ اسمه الكامل الكسندر بافلوفتش، انظم عام ١٨٠٥م إلى التحالف الأوربي ضد نابليون، وهزم أمام الجيوش الفرنسية فعقد صلحا مع نابليون في تلست ١٨٠٧م، وفيما بعد تحالف مع الدول الأوربية ضد نابليون، شهد مؤتمر فينا ١٨١٥م، توفي في ١٩ كانون الأول ١٨٢٥م ولمزيد ينظر: Encyclopedia Americana ,vol,1,p.362 ؛

(٤) Ismail Soysal , Fronsiz intiali ve turk-fransiz Diplomosi Munasebetieri (1789-1802) . Ankara 1964, s, 328

(٥) Клиятина М.С. Внешняя политика России в XIX веке / М.С. Клиятина. – М.: Владос, 2010. – 596 с.

(٦) Pares , B.A History Of Russia , New York , 1984 , PP. 296-297 .

(٧) نقلا عن : هاشم صالح التكريتي، الصراع الروسي – الفرنسي في البلقان في مطلع القرن التاسع عشر، مجلة المؤرخ العربي، العدد (٤٠)، السنة الرابعة عشر، بغداد ١٩٨٩، ص٥٧.

(٨) هاشم صالح التكريتي، الصراع بين الدول الكبرى، المصدر السابق، ص٩٧ .

(٩) صلح وقّع بين بريطانيا وفرنسا في ٢٥ اذار ١٨٠٢م لتسوية خلافاتهما واشتمل على مقدمة وواحد وعشرون مادة، ولمزيد من التفاصيل ينظر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، موسوعة السياسة،ج١، ط٣، منشورات المكتبة العالمية، بغداد، ١٩٨٦م،ص٣٧٦.

(١٠) Herewitz j.c, Op.Cit., Vol , 1, PP. 71-72 .

(١١) Puryear , Vernoni , Napoleon and the Dardanelles University Of Coli Fornia , 1951, PP.19-20 .

(١٢) Lipsen , E, Europein the Nineteenth Century , 1915-1914, 6th Edition (London 1944), P.206 .

(١٣) نايف محمد حسن، محمود عبد الواحد وآخرون، الدولة العثمانية بين الميول الانفصالية ومحاولات الحكم المركزي ١٨٠٨–١٨٣٩، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، العدد ٢٦، (بغداد ٢٠٠١)، ص١٠٦.

(١٤) C.W Eidon , England Sub Sidy Policy Tow the Continerit , during Seven years War , Philadelphia , 1938 , P. 17 .

(١٥) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافه للطباعة، القاهرة ١٩٧٦م، ص١٦٥ .

(١٦) Herewitz j.C, Op.Cit., Vol , 1, PP.72-77 .

(١٧) محمد كمال الدسوقي، المصدر السابق، ص١٦٦ .

)١٨) المصدر نفسه، ص١٦٧؛ عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠، ج١، ص٢٠٠-٢٠١ .

(١٩) Faroghi Suraiya , The Ottoman Empirc , Munlehi, 2008, P. 17 .

)٢٠) هاشم صالح التكريتي، الصراع بين الدول الكبرى في البلقان، المصدر السابق، ص٩٧ .

(٢١) Faroghi Suraiya , Op.Cit.,P.19 .

)٢٢) هاشم صالح التكريتي، الصراع بين الدول الكبرى، المصدر السابق، ص ٩٧.

(٢٣) Прудников М.Н. История государства и права зарубежных стран / М.Н. Прудников. – М.: Юрайт, 2011. – 800 с.

)٢٤) هاشم صالح التكريتي، الصراع بين الدول الكبرى في البلقان، المصدر السابق، ص٩٨ .

)٢٥) الطرف الأغر: رأس اسباني يقع في الشمال الغربي من مضيق جبل طارق، اشتهر بالمعركة التي وقعت قريباً منه وانتصر فيها الأميرال الانكليزي نلسون على الأسطول الفرنسي الاسباني ينظر:. بسام العسلي، المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي ١٨٣٠-١٨٣٨، بيروت، دار النفائس، ١٩٨٠، ص٥٠.

)٢٦) نلسون: هو راشيلونكش (١٧٥٨-١٨٠٥) Naratio : ولد في منطقة نورفك Norfolk، وعمل في سلاح البحرية الانكليزية، رُقّعَ إلى رتبة نقيب عام ١٧٨٧م، تم تعيينه لقيادة الأسطول البحري واستمر حتى عام ١٨٠٥ ينظر :

Brad Ford , Ernled Wyet Selbyrad Ford Nelson The essential hero here , The Loridg Mor , London , 1980 , P. 14 .

)٢٧) هاشم التكريتي، الصراع بين الدول الكبرى في البلقان، المصدر السابق، ص٩٨.

)٢٨) المصدر نفسه، ص٩٩؛

Kinross, Op.Cit., p.429; Show, Op.Cit., Vol, 1, P. 272 .

)٢٩) تاليران: اسمه شارل ماريس تاليران Charle Maurice Taneyrana (1754-1838م)، سياسي فرنسي ولد في باريس في ٢شباط ١٧٥٤م من عائلة نبيلة دخل في خدمة الكنيسة فأصبح رجل دين، وعند قيام الثورة الفرنسية أُنتخب رئيساً للجمعية الوطنية ١٧٩٠، وعندما أصبح نابليون قنصلاً اختاره لوزارة الخارجية، ساند قوات التحالف التي أطاحت بنابليون وأسهم في إعادة آل بورون إلى العرش الفرنسي وشغل منصب في الخارجية (١٨١٤-١٨١٥)، وللمزيد من التفاصيل ينظر: دف كرير، تاليران عقائد وشهوات، ج١، ترجمة : محمد أبو طائلة، القاهرة، ١٩٥٦ .

(٣٠) Marriott , Op.Cit., P. 184 .

)٣١) جزيرة كورفو (Corfu) هي جزيرة يونانية تقع شمال غرب اليونان، تضم مدينة كورفو عاصمة منطقة الجزر اليونانية الإدارية، وأطلق عليها اسم كورفو الذي يعني القمة بالايطالي إشارة إلى القمتين التي تقع بينها، والتي تُشيد قلعتين عليها، وفي عام ١٧٩٧م أصبحت الجزيرة تحت السيطرة الفرنسية بعد استيلاء نابليون على البندقية، ثم احتلتها القوات الروسية الانكليزية عام ١٧٩٩، ثم عادت الجزيرة للسيطرة الفرنسية عام ١٨٠٧ . للمزيد ينظر :

Drian Disk , Corfudavid and enarles Publisher , Michigan , 1977 , P. 11 ؛

A.B. Sirokorad , Osmanli-Rus Sava Slori , Istanbul 2004 , S. 277.

(٣٢) Калинов В. Русские победы / В. Калинов. – М.: Белый город, 2011 – 400 с.

(٣٣) جورجيا Georgia: هي دولة في منطقة القوقاز ذات سيادة، تقع عند ملتقى أوربا الشرقية بقرب آسيا، يحدها من الغرب البحر الأسود ومن الشمال روسيا وأرمينيا، والدولة العثمانية وأذربيجان من الشرق، تغطي مساحتها (١٩,٧٠٠ كم٢)وتُعد إحدى المدن التي اعتنق سكانها النصرانية . للمزيد ينظر :

. Timbur Forde , Georgia , London , 2007 , P.3

(٣٤) Edwards, creasy, History of the ottoman Turks from beginning of the empire to ..the present time, London, 1877.p.364

(٣٥) Корнева Н.Г., Чебоксарова Т.Н. Россия и Европа / Н.Г. Корнева, Т.Н. Чебоксарова. – М.: Лики России, 2010. – 360 с.

(٣٦) Прудников М.Н. История государства и права зарубежных м стран / М.Н. Прудников. – М.: Юрайт, 2011. – 800 с.

(٣٧) محمد كمال الدسوقي، المصدر السابق، ص١٦٨.

(٣٨) Shapp.Frederic , The Eurpean Power and hear Eastern Question (1806-1807) , London , 1931 , P. 372 .

(٣٩) Kinross , Op.Cit., P. 429 ; Creasy , History Of the Ottoman Op.Cit., p.365 .

(٤٠) أحمد ناطق إبراهيم العبيدي، مضائق البسفور والدردنيل ١٧٧٤–١٨١٥، دراسة تاريخية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية التربية ابن رشد، جامعة بغداد، ٢٠٠٣، ص٨٢ .

(٤١) Ишимова А. История России / А. Ишимова. – М.: Белый город, 2009. – 304 с.

(٤٢) هاشم صالح التكريتي، الصراع بين الدول الكبرى في البلقان ، المصدر السابق، ص٩٩.

(٤٣) F.W Pitmon , the Economic derelop Pment of British west indies 1700-1775, New haven , 1917 , P. 61-69 .

(٤٤) Arnould , Op.Cit., P. 322 . نقلاً عن :

(٤٥) محمد كمال الدسوقي، المصدر السابق، ج١، ص٢٠٤–٢٠٥ .

(٤٦) نقلا عن:إلياس أبو شبكة، نابليون بونابرت (١٧٦٩–١٨٢١م)، بيروت ١٩٢٩م، ص٢٦٣.

(٤٧) مجلة الهلال، (الدولة العثمانية من أول القرن التاسع عشر إلى عام ١٩١٣)، مصر، المجلد الثاني والعشرون، الجزء الخامس، شباط ١٩١٤، ص٣٣ .

(٤٨) C.W Krnould , Op.Cit., P. 322 .

(٤٩) Arnould , Systeme Maritime et Pelitique des European Pendont Lxvlll Siecle , Paris , 1797 , P. 322 .

(٥٠) سعيد أحمد برجاوي، الامبراطرية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت،١٩٩٣م، ص٢٠٦–٢٠٧ .

(٥١) أحمد جودت، تاريخ جودت، مجلد ثامن (استانبول ١٣٠٩هـ)، ص٤٦ .

)٥٢) أميل خوري وآخرون، السياسة الدولية في المشرق العربي من عام ١٧٨٩ إلى عام ١٩٥٨، بيروت ١٩٥٩، ج١، ص٢٣ .

)٥٣) هاشم صالح التكريتي، الصراع بين الدول الكبرى، المصدر السابق، ص٩٨ .

(٥٤) Anderson , The Great Power and Near East , Op.Cit., PP. 25.